مذكرات واعظ أسير

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي المدرس بالأزهر الشريف

« مذكرات واعظ أسير » كتاب أخرجته للناس منذ حين ، وسعى إليهم على استحياء ، راجياً أن يلقى منهم حسن الرضى وجميل القبول . وهو يصور أياماً قضت علينا الأقدار أن نقضيها خلف الأسوار ، لا لذنب أو جريرة ، بل لعقيدة عاهدنا ربها على أن نعيش لها ، ونفنى من أجلها ؛ آملين أن يدخلنا صاحب الفضل والطول فى عباده الصالحين ، الذين رضى عنهم ورضوا عنه : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

وليس من همى فى هذا المقال ، ولا من وكدى فى ذلك المجال ، أن أتحدث عن الكتاب ، أو أن أعرض له بتحليل أو تفصيل ، فقد تكفلت مكتبة الخانجى المعروفة فى القاهرة بنشره وتوزيعه فى وادى النيل والبلاد العربية ، بالتعاون مع مكتبة المثنى فى بغداد ، ومكتبة دار الكتاب بالدار البيضاء ، والمكتبة العربية بدمشق ، ومكتبة النهضة السودانية بالخرطوم ؛ ولكنى أريد أن أستوحى من عنوان الكتاب بعض الخواطر الأدبية ، والمعانى العاطفية ، مما تتجاوب حوله المشاعر بين الكاتب وقرائه ... وهل أدب الأديب ، أو كتابة الكاتب ، أو لحن الشاعر ، إلا فلذات يقتطعها من فؤاده ، ويقدمها إلى الناس فى صورة الكلام ؟ ..

وهل السطور إلا ترجمان حسى للعاطفة والشعور ؟ . .

إن كلمة « مذكرات » تبعث فى النفس الحديث عن « الذكريات » ؛ والإنسان مهما شغلته دنياه ، واستحوذت على جهوده مطامحه وآماله ، وكثرت من حوله أثقاله وأعماله ، وغرق فى لجة الحاضر ، وتطلع ببصيرته ورجائه إلى المستقبل ؛ لا بد له من لحظات ، يرجع فيها إلى تلك الذكريات ، ليستعيدها ويعيش فيها ، وإنه ليود جاهداً أن يعود إليها حقاً وحسا ، فلا يستطيع إلى ذلك السبيل ؛ وكأن أمير الشعراء قد لحظ ذلك المعنى حين قال فى مقطوعته (جبل التوباد) :

كلما جئتك راجعت الصبا فأبت أيامه أن ترجعا

وقد تكون هذه الذكريات عن فترة عصيبة ، لاقى فيها المرء مالاقى من عنت الأيام ، ولؤم الأحياء ، وابتلاء الحياة ، وامتحان الأقدار ؛ أو بذل أثناءها ما بذل ، من راحته ومادته وسمعته أيضاً .. وضاق بها ، وتمنى زوالها ، ولكنها بعد أن زالت ، وأوغلت بسبقها فى أعماق الماضى السحيق ، تعاود الإنسان من حين لحين ، فيجد لها لذة ، ويحس لاسترجاعها متعة ، ويتمنى إليها رجعة ، وكأن العذاب قد انقلب فى الذكرى نعيما ، وكأن الشقاء قد تحول عند الاسترجاع سعادة ؛ حتى قال بعض الحكماء : إذا أردت أن تذوق طعم السعادة ، فارجع إلى الوراء زمناً بعيداً ، وتذكر أيام طفولتك ، وما جرى لك فيها من أحداث وحوادث ، فستجد لذلك لذة ، ووقعا جميلا فى نفسك ، ثم تابع المسير من الماضى البعيد إلى الأمس القريب ، مرحلة بعد مرحلة ، وفترة فى إثر فترة ، فستجد أيضاً للماضى عذوبة وخصوبة ، حتى ذكريات المحن والمتاعب ، ستجد لها وقعاً حلواً ، ذا مذاق دقيق عميق فى أغوار نفسك ، وأرجاء حسك ؛ ولا تزال هكذا حتى تصل إلى اليوم الحاضر ، فإن أفلحت فى صبغ هذا اليوم الحاضر بما صبغت به الماضى من حلاوة الذكرى ، وعذوبة الاسترجاع ، فقد بلغت الغاية فى الإحساس بالسعادة ، وإن خدعك شيطانك ، فأقمت بين جمال الماضى وحقيقة الحاضر حجابا كثيفا من أوهامك وأسقامك ، وسوء أحكامك ، فأنت رجل تريد أن تخلق لنفسك ما يسعى إليها بالضيق والألم ، بينما تستطيع أن تظل مغموراً بالخيرات والنعيم . .

وإن الصفحات التى يكتبها أديب أو ذو رسالة فى الحياة عن ذكرياته ، أو أحداث حياته ، أو ما لاقاه فى بيئته وبين جماعته ، تعتبر أدق مخبار يكشف عن نفسه ، ويحدد لون اتجاهه ، ويجلى خلاصة الدروس والتجارب التى مرت به ؛ فيكون فى هذه الخلاصة عبرة وتذكرة ، وتعليم وتقويم ،

وتسجيل وتحليل . . . خصوصا إذا توفرت فى هذه المذكرات عناصر الدقة والإخلاص ، والإنصاف فى الحكم على الأشياء والأشخاص .

وهذه إشارات قرآنية فى موضوع الذكرى :

١ — « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ؛ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ » .

٢ — فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

٣ — « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

٤ — « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

٥ — « فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى » .

٦ — « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ، فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

٧ — « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

***

وكلمة « واعظ » تذكر بالدعوة إلى الله . . والدعوة إلى الله إيمان وذوق وفن ، قبل أن تكون حرفة أو تجارة أو قيادة ؛ وكم من أناس نصبوا أنفسهم دعاة إلى الحق ، وهم أحوج ما يكونون إلى أن يعرفوا هذا الحق ، وإلى من يدعوهم أنفسهم إلى صراطه . .

فالدعوة إلى الحق تستلزم أولا أن تعلم ما هو الحق ، وأن تؤمن بوجوده ، ولزوم اللجوء إليه ، والحرص على اتباعه ، وهى تستوجب فى الداعية ذوقاً ، يميز له بين ما يليق وما لا يليق ، فليس كل ما يعلم يقال ، ولكل مقام مقال ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام ، ولكل طبقة من الناس ما يلائمهم من حديث ؛ وقد يكون اللين فى موطن من أوجب الواجبات ، وقد تتطلب المناسبة حزما وعزما يصلان إلى المراد ؛ وهذا كله لابد له من ذوق ، يمتزج بالحكمة فيستوى به الداعية على سواء السبيل ، فلا يضل ولا ينحرف ، ولا يكسب أعداء بدون مناسبة ، ولا يخسر أصدقاء بلا ثمن .

والدعوة تحتاج إلى فن ، وهذا الفن يحتاج إلى ألمعية وبراعة ، يحسن بهما صاحبهما النفاذ إلى القلوب ، والتأثير فى العقول ، والسيطرة على المشاعر ، والتخلص من المآزق ، وحسن التأتى لحل الأزمات وفض المشكلات .

فيا أيها الذين نصبتم أنفسكم لهذا الغرض الجليل ؛ تدبروا وتبصروا لتدركوا أين تقفون من هذا الطريق . . ولا تكونوا كالذين يصدون عن صراط ربهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .. ولو أسرفوا فى هذا الجهل والضلال لقيل عنهم : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون » .

اغرسوا الإيمان أولا فى صدوركم ، كشجرة عميقة الجذور ، سامقة الجذع ، مورقة الأغصان ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويجد صاحبها قبل غيره فى ظلالها الثقة والأمان ، واليقين والاطمئنان ، فإن هذا الإيمان يجعل العسير يسيراً ، والأحزان أفراحا ، والمتاعب مناعم .

ثم أبرزوا هذا الإيمان المعنوى الروحى المستكن المسيطر على العواطف والمشاعر والأحاسيس عملا وتطبيقا ، وتقيداً وتنفيذاً ، حتى لا تكونوا ممن قيل فيهم : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . وخير القول ما صدقه العمل ، وأرجى فكرة وأدناها إلى النفع والإثمار هى ما صاحبها التطبيق والتنفيذ ، وإن القدوة الصالحة يجليها صاحبها لسواه لهى أشد تأثيراً وأكثر تعميراً من خطب تقال ، أو محاضرات تتردد ! . فهذا هو الطريق ، أفأنتم عليه سائرون ، يا هداة المحجة وأدلاء المسير ؟ ! .

وهذا جانب من حديث القرآن عن الوعظ والدعوة :

١ — « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

٢ — « قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي ، أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

٣ — « وَيَاقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ؛ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ » ! .

٤ — « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ، فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا »

٥ — « وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

٦ — « وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

٧ — « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

٨ — « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

وكلمة « أسير » تذكر بالأسر والاعتقال ، والأسر حرمان من الحرية ، والحرية أغلى شيء في الوجود ، وهل يحس المحروم من حريته وانطلاقه بكيان أو استقرار ؟ . . ولا يمكنك إطلاقاً أن تقدر قيمة حريتك حق قدرها ، وأن تدرك جلال خطرها ، إلا إذا سلبت منك . فهناك تعرف خير المعرفة أنك بدون الحرية لا تساوي شيئاً ، وأنك بحريتك الكاملة كل شيء ، ولا غرو ، فالصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، ولقمة العيش لا يدرك لذتها المتخوم المترف ، أو المبطون المتلىء ، ولكن يهش لها ويلتذ بها الجائع اللهفان ؛ ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من يسلب إنساناً حريته ، أو يجرح كرامته ؛ ورضي الله عن عمر يوم ثار ثورة الهصور الطعين ، وغضب غضبة البحر الهائج ، ومار مورة الإعصار العاصف ، وقال لعمرو حينما تطاول ابنه على كرامة فرد من الرعية : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! .

ألا إنه لا يعتدي على حرية الآخرين — أفراداً أو جماعات — إلا كافر أو فاجر ، ولعنة اللاعنين جميعاً على كليهما .

وعلى الرغم مما في الأسر من حرمان وامتحان ، فهو لا يخلو من عظات وثمرات . . . إنه كما ذكرت يعرفنا قيمة الحرية ، فنزداد عليها حرصاً وبها تمسكا ، ونحسن استخدامها حين تتاح لنا على وجهها الصحيح ، ونجاهد لتهيئتها للمحرومين منها ، فيكون ذلك منا خير إصلاح وإحسان . وصنع الجميل أو المعروف له في نفس الكريم الأصيل هزة قد لا تثيرها رنات المثالث والمثاني :

ولم أر « كالمعروف » . أما مذاقه
فحلو ، وأما طعمه فجميل

والأسر فيه حبس وعقل وتضييق . وتلك فرصة ينتهزها اللبيب ، فيراجع ويقارن ويتأمل ، ويستعرض سابق الصفحات وحاضرها ، ويستنتج ما يفيده في حاضره وقابله ، ويزيده بالأيام وأهلها خبرة وتجربة ، ويفتق عقله وحيلته ؛ ولعل كثيراً من جلائل الآراء والأفكار قد شهدت ميلادها على أيدي العباقرة والأفذاذ ، وهم خلف الأسوار محرومون — لحين — من الحرية والانطلاق .

وتلك بعض الإشارات عن تكريم القرآن للانسان وحريته :

١ — « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

٢ — « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » .

٣ — « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » .

٤ — « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ ، فَسَوَّاكَ ، فَعَدَلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » ؟ ! .

٥ — « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » .

٦ — « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا » .

٧ — « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

٨ — « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

على أساس هذه المعاني التي استخلصناها من كلمات « مذكرات » و « واعظ » و « أسير » أحب لقرائي أن يقرأوا كتابي : « مذكرات واعظ أسير » ! .

ومن يدري ، لعلهم يلحظون ما لم ألحظ ، ويثور في أذهانهم أو صدورهم ما لم يثر في خاطري أو جناني ، والهبات أرزاق .

والله أسأل أن يجملني وإياك بنعمة التواضع ، حين يتطاول الأقزام . وسلام عليك في المتبصرين .

أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر